ISSN : 2543-3938 - EISSN : 2602-7771

الرواية الشفوية ودورها في تدوين معارك الثورة الجزائرية
(معركة الجرف أنموذجا)

Orature and its Role in Bookkeeping the Algerian Revolution Battles (El Djorf Battle as a Model)

الصادق عبد المالك

جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)، sadek.abdelmalek@univ-biskra.dz

تاريخ الإستلام: 24 /08/ 2021 تاريخ القبول: 20/ 09/ 2021 تاريخ النشر: 30/ 09/ 2021

ملخص:

تعتبر الرواية الشفوية مصدرا تاريخيا مهما يُعتمد عليه في كتابة وتدوين معارك ثورة التحرير الجزائرية يجنح إليها الباحث أو المؤرخ في الحقل التاريخي لدراسة ونقل الأحداث من خلال ما هو محفوظ في الذاكرة لأفراد عاشوا تلك الفترة الزمنية المهمة أو كانوا طرفا فاعلا فيها.

وعلى الرغم من العيوب التي تشوب الرواية، إلا أنها أصبحت ضرورة لا تقل أهمية عن المصادر التاريخية الأخرى في كتابة التاريخ الوطني بصفة عامة والتاريخ المحلي بصفة خاصة، تضبطها قواعد وأسس منهجية تبدأ بتجميع الشهادات ثم مقارنة بعضها ببعض بكل موضوعية بعيدا عن أية ذاتية أو إيديولوجية أو مبالغة، لتصبح في الأخير مصدرا جيدا للكتابة التاريخية.

ومن هذا المنطلق تم الاعتماد على بعض الشهادات الحية لتغطية جوانب مهمة عن معركة الجرف الكبرى والتي جرت وقائعها بناحية تبسة بالمنطقة التاريخية الأولى يوم 22سبتمبر1955 للمساهمة في توثيق أحداثها بطريقة سليمة للحفاظ على التاريخ المحلي من التلف.

الكلمات المفتاحية:الرواية الشفوية، معركة الجرف، الشهادات، المنطقة الأولى، الثورة.

***

Abstract:

Orature is an important historical source on which scholars and historians rely in writing about the battles of the Algerian revolution and in studying and reporting events through what is stored in the memory of those who witnessed that era, or had a role then.

Despite the pitfalls of the orature, it is still an important source as the other historical sources when writing the national history in general and the local one in particular. This act is bound by methodological bases that start with collecting witnesses and comparing them objectively far from any ideology or subjectivity. On this basis, some witnesses have been used to cover important sides of El Djorf Big Battle which took place in Tebessa, the 1st historical region, on 22/09/21955 in order to bookkeep its events correctly and protect local history from falsification.

Keywords: *Orature- El Djorf Battle- witnesses- 1st region- revolution*

مقدمة

أصبحت الرواية الشفوية تحتل مكانة مهمة في حقل الدراسات التاريخية، حيث بإمكانها سد الفراغ الذي يسببه غياب الوثيقة المكتوبة في كتابة ونقل الأحداث والوقائع الماضية، غير أنه وعلى مدى أهميتها الا أنها تتميز في أغلبها بالذاتية، وقابلة للانتقاد أحيانا، خاصة إذا تضاربت محتوياتها وتناقضت، وعلى الرغم من ذلك فإن البحث التاريخي عامة وتاريخ الثورة الجزائرية خاصة، بحاجة ماسة إلى تلك الروايات والمذكرات والشهادات الحية لتدوين معارك الثورة التحريرية ، مما يجعل الاعتماد عليها أمرا ضروريا لاستكمال الدراسات التاريخية مع خضوعها لضوابط وشروط منهجية دقيقة .

ومن هذا المنطلق جاءت هذه الورقة البحثية لتسليط الضوء على القيمة التاريخية للرواية الشفوية في تدوين معركة الجرف الكبرى والتي جرت أحداثها في ناحية تبسة بالمنطقة التاريخية الأولى(الأوراس) يوم 22 سبتمبر1955.

ولمعالجة هذا الموضوع تم طرح الإشكالية الآتية: **ما مدى أهمية الرواية الشفوية في التدوين التاريخي عامة ومعركة الجرف خلال الثورة الجزائرية بشكل خاص ؟**

يندرج تحتها التساؤلات الفرعية التالية: ما المقصود بالرواية الشفوية؟ وما هي الأسس المنهجية لتحويلها إلى تاريخ مدوّن؟ وما هي أهميتها وقيمتها في تدوين تاريخ الجزائر؟

وللإجابة على الإشكالية الرئيسية والتساؤلات الفرعية تم إتباع خطة مقسمة إلى جانبين؛ الجانب النظري و يحتوي على دراسة الرواية الشفوية من الناحية النظرية بالتطرق إلى تعريفها وضوابطها وأهميتها في تدوين تاريخ الجزائر المعاصر، وكذا عيوبها، وقسم تطبيقي تم فيه تطبيق الرواية الشفوية من خلال شهادات مهمة لأفراد عايشوا وقائع معركة الجرف.

أولا: مفهوم الرواية الشفوية:

أ- لغة: روى: الراء والواو والياء: أصل واحد ثم يشتق منه. فالأصل رويت الماء رياً. قال الأصمعي: رويتُ على أهلي أروي ريًّا، وهو راوٍ من قوم رُواة، وهم الذين يأتون بالماء. فالأصل هذا ثم شُبِّه به الذي يأتي القوم بعلم أو بخبر فيرويه، وكأنه أتاهم بريهم من ذلك (ابن فارس، 1991) ، وهي ما يروي الإنسان في نفسه من القول والفعل ، يقال: روأتُ في الأمر، وقيل: روى فلان شعراً، إذا رواه له حتى حفظه للرواية عنه، وقال الجوهري: رويتُ الحديث والشعر رواية فأنا راوٍ (ابن منظور، 2007) .

ب- اصطلاحا: هي حمل الحديث وإسناده إلى من عزي إليه بصيغة من صيغ الأداء، وقيل هي ما تواترت رواية على لفظ واحد يرويه كل الرواة(الزميلي، 2006). إذن فهي ما تتناقله الأجيال شفاهيةً من أحداث مضت وانقضت.

ومن خلال هاته التعاريف نخلص إلى أن: الرواية الشفوية هي تناقل الأحداث التاريخية عبر الأجيال أو جيل واحد على الأقل، أو بين أفراد العائلة، والجيران، وزملاء العمل، والمجتمع، بالحديث عن القصص والمواقف، والتجارب والحروب، والظروف الماضية.

ثانيا: ضوابط الرواية الشفوية:

إنَّ الوثائق الشفهيَّة لا تقلُّ أهميَّة عن الوثائق المدوَّنة، ولا تتفوَّق الأخيرة على الأولى، إلا بكوْنِها تخضع لطرُق متعدِّدة للتأكُّد منها، وخلوِّها من التَّزوير، ولكن ليس من الصَّعب أن نضعَ ضوابط مُماثِلة لإثبات صحَّة الوثائق الشَّفهية قبل تسجيلها، بواسطة آلات التَّسجيل أو تدوينها (حريز، 1999) .

إن الرواية الشفوية تخضع لعدة ضوابط حتى تصبح مصدرا من مصادر تدوين التاريخ نوجزها فيمايلي:

2. 1. صاحب الرواية (الراوي):

لا رواية شفوية بدون راوي، وهاته الصفة ترتبط بحقيقة معاصرته ومعايشته للحدث التاريخي، ومن الطرق والوسائل التي يقاس بها مدى واقعية ما يرويه راو عن حدث معين في فترة زمنية ما ، هو طرح التساؤل للتثبت إن كان فعلا عايش الحدث وعاصره ، أم أن الأمر محض ادعاء وافتراء، وهذا الأمر يتوقف على حسابات الزمن المتعلقة بسن الراوي، وعلى صفة الراوي ومكانته من الواقعة التاريخية المراد رواية أحداثها، فعندما يدّعي الراوي بأنه عايش الحدث فعلا ،وجب البحث لمعرفة زمن ومكان ولادته، للتأكد فيما إذا كان قد عايشها فعلا أو سمعها من شخص ما، لأنه كلما اقترب الراوي من الحدث اقتراباً مباشراً وقت حدوثه، كلما كانت روايته أقرب إلى الوثوق منها إلى تلك الروايات التي لم يتفاعل ولم يعايش رواتها الحدث ، أو حتى أنه ربما لم يكن قد توفر للراوي الإدراك العقلي والذهني - بحكم سنه - للإلمام بأدق التفاصيل عند وقوع الحادثة التاريخية المراد البحث في أحداثها(أبو شبيكة، 2006) ، وهنا فإن الرواية في التاريخ الشفوي تتطلب راوٍ عايش وعاصر الحدث لا راوٍ سمع من فلان وفلان عن الحدث.

2. 2. مادة الرواية في التاريخ الشفوي:

مادة الرواية الشفوية هي كل الكلمات التي ينطقها الراوي أثناء إجراء المقابلة الشخصية، أي أن النطق هو الوسيلة الاتصالية في الرواية الشفوية، فلا يجوز اعتبار لغة الإشارة لمن لا تتوفر لديهم قدرة النطق على أنها رواية شفوية تصلح لأن يعتمد عليها في التاريخ الشفوي، حتى وإن كان ذلك الشخص الذي لا قدرة لديه على النطق قد شاهد الحدث بنفسه وعايشه، لأن لغة الإشارة وإن كانت بديلا للغة المنطوقة إلا أنها بالطبع ليست اللغة المنطوقة نفسها، ولغة الإشارة لا تمنح الشخص لأن يعبر تعبيرًا مفصلا عما تزدحم به ذاكرته من أحداث ووقائع (أبو شبيكة، 2006).

كما أنه لا يمكن اعتبار رواية شفوية استقيت من شخص أثَّر الكبر والسن أو المرض في نطقه تأثيرًا واضحًا على أنها رواية شفوية يعتد بها في التاريخ الشفوي، فلو أراد باحث تاريخي أن يوثق ويؤرخ لحالة المذابح التي تعرض لها الشعب الجزائري في منطقة ما إثر أحداث الثامن ماي 1945 -على سبيل الذكر لا الحصر-

معتمدا على الرواية الشفوية كمصدر من بين المصادر التاريخية الأخرى، وبدأ الباحث في إجراء المقابلات الشفوية مع أولئك الذين عايشوا الحدث وعاصروه وكان من بين من قابلهم شخص بدا عليه وبشكل واضح أثر الكبر والمرض على نطقه، عندها لا يجوز للباحث أن يطلق العنان لنفسه في توضيح بعض المصطلحات الواردة، لأن دور الراوي هو الكشف قدر المستطاع عن التفاصيل المعمقة لتلك الأحداث والوقائع.

2. 3. النزاهة والموضوعية في التاريخ الشفوي:

الرواية الشفوية تتحدث عن واقعة تاريخية ما في فترة زمنية ما مرتبطة بتاريخ الراوي، وهو إنسان تحركه دوافع وعواطف، تجعله يميل أحيانا إلى تلك الجهة أو ذاك الشخص مما يؤثر على مصداقية وموضوعية ما يرويه، ولأن الإنسان عرضة للميل والغفلة والتحيز والهوى، فإنه أيضًا عرضّة للخطأ غير المقصود، وللنسيان بفعل المرض وتقدم السن، وأحيانًا لتدافع الأحداث وازدحامها لديه، لذلك كان منهج النقد التاريخي للرواية الشفوية ولغيرها من المصادر التاريخية هدفه، لأن يكون "عمل المؤرخ هو استخلاص أية ذرة صدق لها صلة بالموضوع، إذا كان بإمكانه أن يفعل ذلك"، وأن يتساءل": هل أعطى الراوي معلومات.. محرفة أو كاذبة لكي يخدم مصلحة دولة أو شعب أو حزب أو مذهب أو شخص معين؟ وهل روى بطريقة تظهر الجهة التي يميل إليها في مظهر ملائم ومعارضيهم في وضع غير ملائم؟ (أبو شبيكة، 2006).

يرى "لويس جوتشلك" بأن هناك ظروفًا تتهيأ للشاهد أو الراوي كي يقول الحق، ومن هذه الظروف:

أ- عندما يكون مفاد العبارة مسألة لا يبالي بها الشاهد، فأغلب الظن أنه عندئذ يكون غير متحيز وبذلك يسجل الحقيقة صادقة.

ب- عندما تكون عباراته فيها تحامل على نفسه، أو على جماعة عزيزة عليه، أو ضد مصلحته الشخصية.

ج- إذا كانت الحادثة أو الحقائق التي يرويها، شائعة ومعروفة لدى الجميع (جوتشلك، 1966) .

كما أن المعلومات المسبقة التي يجمعها الباحث أو المؤرخ فيما يتعلق بالحادثة أو الواقعة التاريخية تحاصر الراوي معنويًا إلى حد ما، فيكون دوره كضابط التحقيق الماهر-غير المثير للأعصاب وغير المستفز - من حيث الانتباه لكل ثغرة قد يجدها أثناء رواية الراوي لروايته. لأن ذلك يؤدي إلى ترسيخ الانطباع لدى الراوي بأن الباحث المؤرخ الذي يجلس أمامه لديه قدر من المعرفة عن الحادثة أو الواقعة التاريخية التي يرويها، وبأنه أمام باحث مؤرخ ذو نظرة ثاقبة وقادر على فحص وتدقيق كل ما ينطق به من كلمات وعبارات، ومن واجب الباحث الجيد، أن لا ينحاز لقبول رواية بعينها لمجرد أنها وافقت ميولاته واهواءه، بل يجب عليه أن يقوم بتدقيقها وتمحيصها؛ وإن شك في صدق روايةٍ ما، فعليه تجنبها، حتى لا تحسب عليه، فهو المسؤول أولا وأخيرًا عما أورده من أحداثٍ تاريخية.

ثالثا: أهمية الرواية الشفوية في تدوين تاريخ الجزائر المعاصر:

باتت الرواية الشفوية من أهم المصادر التي يعتمد عليها الباحث في تدوين التاريخ المعاصر للجزائر، لأنها أصبحت متممة ولازمة لتأكيد ما ورد في الوثائق الرسمية التي تدرس الحوادث التاريخية المعاصرة، إلاّ أنه لا يجب على الباحث المؤرخ أن يعتبر تلك الرواية بديلا عما ورد في الوثائق لأي سببٍ من الأسباب؛ فقد يداخل الراوي الهوى، فيذكر ما يحلو له من وقائع مع بعض المبالغة، خاصّة إذا كان مناوئًا لسياسة حكومته التي وقعت الأحداث في زمنها.

ويعتبر التاريخ الشفوي منهج بحث مهمته دراسة الماضي من خلال الكلمة المحكية المحفوظة في الذاكرة الإنسانية، والمنقولة مشافهة من خلال روايات الأفراد وذكرياتهم عن أحداث حياتهم، وخبراتهم ومشاهداتهم، خاصّة تلك التي شاركوا فيها شخصيًا، أو كانوا مجرد شهود عيان عليها، والواقع أن الرواية الشفوية وسيلة ضرورية لنقل المعلومات والأخبار والتجارب (أبو نحل، 2006).

وفي هذا الصدد نجد الدكتور "تلمساني بن يوسف" -أستاذ التعليم العالي بجامعة الجزائر، ورئيس المجلس العلمي لمركز الدراسات والبحث في الحركة الوطنية، أمين وطني لاتحاد المؤرخين الجزائريين- يدعو إلى الاهتمام بالشهادات الحية، حيث أكد على أهمية تسريع وتيرة جمعها من خلال الرواية الشفهية لمن عايشوا الثورة والمجاهدين الذين تقدم بهم السن كثيرا قبل وفاتهم، خاصة أن الكثير من المواضيع التاريخية التي أنجزت، اعتمد فيها كليا على الشهادات الحية التي تأخر توظيفها كثيرا، واعتبرها أهم وسيلة في جمع الأرشيف وكتابة التاريخ الوطني، خاصة بالنسبة لبعض المواضيع التي تنعدم فيها الوثيقة المكتوبة، ما جعل الباحثين يعتمدون على التسجيلات بالدرجة الأولى لإعداد أعمالهم (تلمساني، 2014).

لذا اعتبر الأستاذ تلمساني أن الرواية الشفوية مهمة في الوقت الحالي نظرا لكون عملية تدوين التاريخ الوطني وكتابته من قبل المؤرخين، لا تزال تعترضه صعوبات، خاصة ما تعلق بالأرشيف الوطني الذي تم تهريبه بطريقة غير شرعية من قبل السلطات الفرنسية، التي ترفض تسليمه وتعتبره ملكا لها، حيث يبقى جزء هام من أرشيف الثورة الجزائرية والوثائق الأساسية المتعلقة بالجانب الاقتصادي، الإداري والسياسي، حبيس الأدراج في فرنسا وبعيدا عن المؤرخين والباحثين، رغم المساعي التي قامت بها الجزائر من خلال المركز الوطني للأرشيف لاسترجاعه، ضف إلى ذلك وجود رصيد من الأرشيف الوطني غير متاح للباحثين لتناوله في مواضيعهم، على غرار الأرشيف المتواجد بالمتحف الوطني للمجاهد، الذي يبقى لحد الآن غير مستغل "ليس بقرار سياسي أو قانوني، وإنما بسبب اللامبالاة التي تؤخر عملية كتابة التاريخ بموضوعية" (تلمساني، 2014).

وتبدأ أهمية الشهادة الشفوية عند عجز الحصيلة الوثائقية "الوثائق الرسمية المكتوبة" في توضيح وبناء الحادثة التاريخية جيدا، سواء لعدم وجود الوثيقة أصلا، أو لضياعها، أو لصعوبة التأكد من صحتها، أو لعدم كفايتها التفسيرية... وفي هذه الحالة يقف المنهج التاريخي الصارم الذي يأخذ بمبدأ -لا تاريخ بدون وثائق- عاجزا غير قادر على الاستمرار لأنه سيتناقض مع مبدأه، وفي هذه الحالة يعتبر القبول بالرواية الشفوية كمصدر تاريخي أكثر من ضرورة (بن يغزر، 2013).

كما تزداد أهمية الشهادة الشفوية أكثر عندما يتعلق الأمر بدراسة حركات نضالية، أو ثورات شعبية على غرار الحركة الوطنية والثورة الجزائرية، التي يفرض طابعها درجة عالية من السرية، وتجنب استخدام الوثائق إلا على نطاق ضيق ومحدود حذرا من انكشاف أسرارها، أو أفرادها.

وبما أن الرصيد الوثائقي للثورة لا يغطي كل أحداثها وتطوراتها، أصبح من الصعب الاكتفاء بتطبيق المنهج التاريخي الكلاسيكي، الذي يعتمد أساسا على الأرشيف الوثائقي، نظرا للصعوبة التي يجدها الباحث في العثور على وثائق تخص البحث في بعض المواضيع (لونيسي، 2005)،ولا ننسى أن كمًا معتبرا من الوثائق التاريخية الخاصة بتاريخ الجزائر المعاصر موجود في مراكز الأرشيف بفرنسا، وفي بعض المؤسسات والهيئات التي كانت لها علاقة بالجزائر خلال فترة الاحتلال كوزارة الدفاع والخارجية...، وهي في الغالب تمثل وجهة النظر الفرنسية من خلال التقارير التي كانت تصدر عن الهيئات الرسمية المدنية والعسكرية، وهنا يحتاج الباحث إلى وجهة نظر أخرى من خلال الوثيقة التي صدرت من الجانب الجزائري، حيث يلجأ للشهادة الشفوية التي من شأنها إذا تم التعامل معها بطريقة منهجية، ووفق ضوابط دقيقة، إن كان في جمعها، أو في استقرائها ونقدها، أو في توظيفها، أن تسد فراغا كبيرا في الكتابة التاريخية، خصوصا حول الثورة الجزائرية و معاركها(بن يغزر، 2013).

تكمن أهمية الرواية الشفوية أيضا في الإضافة النوعية التي تتمثل في كونها لا تصف الحدث فقط من زاوية من يرويها ولكن: "تعبر كذلك عن شيء من العلاقة بين الماضي والحاضر والامتدادات بينهما، لأن رواية الأفراد تعكس إلى حد ما خلفياتهم المعاصرة، لأنهم يتأثرون بالمحيط الاجتماعي السائد، وبحياتهم الحاضرة. فالفاعل التاريخي لا يصف الماضي الذي يعرفه من خلال مثل وقيم موجودة في ذهنه"(مجاود، 2012).

وبقدر أهمية هذه الخاصية في الشهادة الشفوية إلا إنه لا يجب أن يغيب عن وعي المؤرخ الفصل بين الحدث كما وقع، وبين انطباع الفاعل عنه، وتأكيدا على ذلك ونظرا لتلك الأهمية يشير الدكتور "الحسين العماري" إليها في قوله: "هي المكمل الأساسي للنصوص والوثائق الاركيولوجية، لكونها تقوم بتغطية ما يعتريها ويشوبها من نقائص، كما بإمكانها أن تقدم وجهة نظر مغايرة، وهي أيضا مصدر تاريخي أساسي يمكن اعتماده في إعادة بناء ماضي الشعوب التي تفتقر إلى رصيد مكتوب" (العامري، 2011).

وللإشارة فقط نجد أن وزارة المجاهدين قد أصدرت تعليمات صارمة للمديريات الولائية والمتاحف بجمع الشهادات الحية وتسجيلها (القرار الوزاري رقم 1322، 2011)،لذلك نجد كميات معتبرة من الشهادات عن الثورة الجزائرية قد جمعت عبر مختلف ولايات الوطن، وكذا شهادات أخرى من طرف المركز الوطني للبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، وكلها تشكل مصادر توثيقية مهمة للباحثين في تاريخ الثورة الجزائرية، على الرغم من عدم توافر أغلبها على الشروط المنهجية اللازمة.

وعليه فيمكن القول أن للرواية الشفوية هدفان، أولهما توثيقي والمقصود به تسجيل وقائع تاريخية محددة في المكان والزمان والأسماء إن أمكن، وذلك بديل عن فقدان الأرشيف الوطني أو تكملة له، وثانيهما إنساني والمقصود به توثيق المشاعر الإنسانية والآلام والمعاناة أثناء المرور بتجربة فريدة، مثل جرائم الاستعمار الفرنسي في حق الشعب الجزائري.

رابعا: عيوب الرواية الشفوية:

إن الرواية الشفوية تهم المؤرخ في دراسة بعض الحوادث التاريخية، إذ تعرّفه على الصورة التي كانت في أذهان الناس إزاء هذه الأحداث (العامري، 2011)، وهذا ما يجعل العديد من المؤرخين يبدون تشككهم في قيمتها المصدرية، ومدى مصداقيتها ويشترطون تعزيزها بمصدر آخر، لأن هاته الصورة قد تختلف من شخص

إلى أخر، وتتحكم فيها العواطف والمشاعر التي تتحكم بدورها في موقف الراوي من ذلك الحدث، وعليه نجد الرواية كمصدر من مصادر التاريخ تعاني من بعض العيوب نذكر منها:

- الافتقاد للموضوعية التاريخية، كونها جاءت لحماية أشخاص أو أمة أو معتقد، وهذا ما يجعل عملية الاعتماد عليها يخلق نوعا من اللبس على الباحث، وقد يودي به إلى العديد من المتاهات التي قد تحجب عنه الحقيقة التاريخية.

- تعبّر عن رأي وفكر أصحابها، وهذا ما نلاحظه في الروايات المتعلقة بأتباع الطوائف الدينية.

- التكتم على العديد من الوقائع، وأكثر من هذا يمكن أن يشوه الراوي الوقائع وسمعة أشخاص اخرين، فننتقل حينها من مرحلة البحث عن الحقيقة التاريخية، إلى مرحلة جد متقدمة وهي الأخطر؛ ألا وهي مرحلة إخفاء الحقيقة التاريخية، فالراوي يسعى دوما الى تضخيم دوره في الأحداث التي عايشها (قرباش، 2014).

- طغيان النزعة الإيديولوجية والسياسية والثقافية على الرواية الشفوية والمذكرات الشخصية، وفي هذا الصدد يؤكد الأستاذ "رابح لونيسي" أن هاته النزعة تجعل بعض الأشخاص الحاقدين يسعون إلى تصفية حسابات مع شهداء لا يمكن أن يعودوا من القبور للدفاع عن أنفسهم، فعلى المؤرخين اذا الدفاع عن هؤلاء أمام الهجمة الشرسة التي يشنها هؤلاء استنادا إلى مقولة الشهيد ديدوش مراد "إذا استشهدنا دافعوا عنا" (قرباش، 2014).

- قد يغفل أصحاب المذكرات الإشارة إلى أحداث أو أشخاص كان لهم دور مهم في صنع الأحداث، عن قصد أو عن غير قصد، أو يسكتون عن فترة زمنية لا يرغبون في التحدث عنها لظروف سياسية أو أمنية، وقد أشار الأستاذ "أبو القاسم سعد الله" إلى جانب منها بقوله: "أننا لم نكتب تاريخنا كله بمراحله المختلفة وعلاقاته المتشابكة، ويُرجع بعضهم هذا التوقف عن الكتابة التاريخية عندنا إلى عامل السلطة، وآخرون إلى عامل الحساسية المفرطة، وقد كتبنا عن ذلك وعزوناه إلى عامل الخوف من التاريخ نفسه" (سعد الله، 1996)،وهذا ما ينقص من جدية الراوي في نقل مشاهداته كما عاشها، فيحور بما يضمن عدم تعرضه لمضايقات.

- اعتمادها على الذاكرة التي هي عرضة للقصور والخطأ بسبب المرض أو التقدم في السن.

وعليه فإن الإخراج النهائي للشهادة الشفوية يتوقف على المؤرخ الذي يتحمل المسؤولية المباشرة في الصياغة الأمينة للشهادة، بحيث تعكس بشكل دقيق رؤية الشاهد للحدث، وإخضاعها إلى منهجية علمية دقيقة، ونقدها حتى يتمكن من تقديمها كمصدر تاريخي موثوق.

خامسا: معركة الجرف من خلال الروايات والشهادات الحية

5-1 - بداية المعركة:

قبل الخوض في ذكر بعض تفاصيل المعركة وجب العودة إلى تاريخ وقوعها، فبعض الروايات تختلف فيه، فعلى الرغم من أن أغلبها قد حددته بيوم 22 سبتمبر 1955، إلا أن البعض الاخر منها ممثلة في شهادة كل من مسعي علي بن أحمد والعربي شرابن وعباد لحبيب وغيرهم قد أكدوا بأنها اندلعت في الفترة ما بين 11 إلى 16 سبتمبر 1955 (جرمان، 2009)،حينما قرر شيحاني بشير قائد المنطقة الأولى بالنيابة عقد اجتماع طارئ في المكان المسمى برأس الطرفة بجبل أرقو بناحية تبسة بحضور جمع غفير من الناس قُدّر بأكثر من 300 رجل من ممثلي وأعيان أعراش المنطقة، أين ألقى خطابا حماسيا شديد اللهجة، استعمل فيه بعض العبارات والمفردات السهلة، داعيا فيه الكل إلى ضرورة الوحدة ونبذ التفرقة ومحاربة الاستعمار الفرنسي واقتصاده، حيث وصف الوردي قتال - وهو من الرعيل الأول للثورة وأبرز أبناء تبسة المشاركين في المعركة منذ البداية - ذلك الخطاب بالتاريخي و بأنه كان بمثابة دعوة للاستعداد لأي طارئ محتمل نظرا لأن شيحاني كان يعلم بوجود مندسين وجواسيس وسط الحضور، حيث دعا الجميع الى اليقظة تجاه ما يدبره الاستعمار الفرنسي من خطط للقضاء على الثورة (قتال، 2018).

أما عن الوقائع فإن بدايتها كانت صعبة للغاية فبعد أن إحتمى جنود جيش التحرير في الكهوف ومغارات الجبل، تمكنت القوات الفرنسية من القضاء على الكتيبة المتقدمة للقائد عجرود، لكنها فشلت في التقدم على الرغم من محاولاتها المتعددة واستعمالها للدبابات كدروع واقية خاصة في الجهة الشمالية والتي بدأ فيها تبادل كثيف لإطلاق النار، كان نتيجته اصابة تلك الدبابات بالعطب وأحرقت الشاحنات وبدأ العدو المقدر تعداده بأكثر من 40 ألف جندي في التراجع للوراء وترك الفرصة للمجاهدين لغنم ما تركوه من أسلحة (شهادات حية، 2007).

مُنِيَ الجيش الفرنسي بفشل ذريع منذ البداية فتم اللجوء إلى استعمال أسراب الطائرات التي قصفت بعض المواقع في جبل الجرف مستعملة الغازات السامة –المحرمة دوليا - للتأثير والتقليل من فاعلية المجاهدين، وترك الفرصة للقوات البرية لاستعادة الأنفاس والتقدم من جديد، وهو ما حصل بالفعل أين نشب قتال عنيف على كل الجهات، أبدى خلاله المجاهدون بسالة فائقة في التصدي والمواجهة المستميتة، وانتهى مع تهاطل الأمطار بتطويق الجيوش الفرنسية لكل المنافذ في انتظار ما ستحمله باقي الأيام من مفاجآت (قتال، 2018)

على عكس ما أكدته بعض الشهادات في أن المعركة دامت ثلاثة أيام فقط، تذهب أغلبها - وهي الأقرب للصحة - إلى القول بأن معركة الجرف دامت أكثر من أسبوع محددة الفترة ما بين 22 سبتمبر 1955 إلى غاية 04 أكتوبر 1955 (نصر الله، 2020) ،حيث سيرها شيحاني ومن معه تسييرا جيدا، وكان هو عقلها المدبر لخططها الحربية بعد أن تُرْفع إليه التقارير بانتظام عن طريق نائبيه عاجل عجول وعباس لغرور موصيا إياهما بالمحافظة على أرواحهما وعدم تعرضهما للنيران، لأن الثورة ما تزال بحاجة إليهما (مدلسي، 2011).

لم يختر شيحاني بشير الإختباء في المغارة هروبا من النيران و خوفا من المواجهة والموت بحسب ما روج له (جرمان، 2009)، بل إن السبب هو إصرار المجاهدين على حماية قائدهم، لأن استشهاده سيؤثر سلبا على معنوياتهم وقد قبل بالبقاء داخل المغارة على مضض، حيث كان يوجه المعركة من داخلها (قتال، 2018)، وكانت نتائج كل مواجهة يقيّمها بنفسه بحضور نائبيه لتُتّخذ القرارات الحاسمة للتعامل مع مجريات الأحداث بما يلزم من القرارات والمواقف المناسبة (هلايلي، 2013).

في اليوم الرابع من المعركة بدأ التفكير في إيجاد منفذ آمن للخروج اتقاء لأسلحة ونيران العدو فتم تقسيم المجاهدين إلى ثلاثة فصائل - يقول عاجل عجول – فتكونت كل فصيلة من 50 رجلا، قاد هو أولها، أما الثانية فقادها بشير ورتال (المدعو سيدي حني)، في حين أسندت قيادة الفصيلة الثالثة إلى عباس لغرور، وتم عقد العزم على فتح الطريق رغم الحصار الشامل ، خاصة المنطقة الشمالية والتي تمركزت فيها الدبابات و المدفعية والآليات الفرنسية التي أصابها العطب (مدلسي، 2011).

5-2- الانسحاب ونهاية المعركة :

قبل مباشرة الانسحاب تم الاتفاق على كلمة سر هي (خرشف) - وهو نبات شوكي معروف في المنطقة جيدا - وأثناء التقدم اشتدت المعركة ضراوة مما تسبب في تشتيت المجاهدين وعزلهم، فأصبح كل مجاهد يدافع عن نفسه، بعد أن كُشفت المغارات للجنود الفرنسيين الذين قاموا بصب البنزين داخلها وحرقها مما أدى إلى استشهاد العديد من جنود جيش التحرير بالداخل رافضين الاستسلام لهم حيث صرح المجاهد شرابن علي بأن رفقاءه واصلوا القتال على نفس الوتيرة إلى غاية غروب الشمس، أين تمكن الفرنسيون من محاصرتهم في انتظار بزوغ الفجر لإلقاء القبض عليهم (جرمان، 2009) .

أصر عاجل عجول بأن يخرج الجميع سويا، وفي لحظة من الزمن اكتشف أمرهم حينما أطلق العدو صاروخا مضيئا في السماء وتم الرد على مصدره مباشرة من طرف جنود جيش التحرير الوطني البواسل، فكان الفرنسيون الواقعون بين رشاشاتهم ضحية لأسلحة المجاهدين الآلية، و البيضاء فسقطوا بكثافة في مجرى الوادي ، حيث تلون الماء بالأحمر، ثم انطفأ الصاروخ واختفى كل شيء(مدلسي، 2011).

مع مرور الأيام وأثناء عملية الانسحاب تزايد هطول المطر بغزارة شديدة، مما سهل من مهمة الخروج، فكان ذلك الهطول كرامة من الله سبحانه وتعالى فساخت أقدام الجنود الفرنسيين في الوحل، وابتلت أسلحتهم وانخفضت دقة تصويبهم، وانتاب الخوف على وجوههم، فنجحت بذلك الدورية في فك الحصار وتسهيل المأمورية على الفصيلتين في عملية الخروج (تابليت، 2014).

اعتقد المجاهدون أنهم بنجاتهم من الطوق الأول قد نجحوا في اجتياز الحصار، لكن ما إن خرجوا من طوق إلا وواجهوا طوقا آخر على مدى 15 يوما - بحسب الروايات - قضوها في الإنسحاب والاشتباكات المتتالية تم خلالها الإستيلاء على كثير من المواد التموينية والتي كانوا في أمس الحاجة اليها، وبإتجاه الجنوب التقى شملهم، حيث تم تعيين مسؤول عن كل 20 مجاهدا، كما تم الاستعانة بأفراد يعرفون المسالك جيدا

من ساكنة المنطقة للوصول إلى مكان آمن، فعلى الرغم من أن الحصار لا يزال مضروبا على نواحي شعبة مريم، مما استلزم ترك الأسلحة الثقيلة في أحد المخابئ، الا انهم واصلوا السير باتجاه جبل الجديدة ومسحالة، أين تمت المواجهة من جديد مع القوات الفرنسية في أكثر من اشتباك انقسم بعده المجاهدون إلى مجموعتين قاد عاجل عجول الأولى، وتولى عباس لغرور قيادة المجموعة الثانية ، وتم التوجه إلى الجهة الغربية أين تم اللقاء أخيرا في وادي الجديدة (زروال، 2003).

أما القائد شيحاني بشير فقد بقي داخل المغارة، وبحسب بعض الشهادات، فقد طالت مدة تواجده رفقة من معه، وتحت رحمة الجوع والعطش ألقي القبض على بعض مرافقيه حينما أرادوا الخروج باتجاه الوادي بحثا عن الماء، وبعد التعذيب صرحوا للعدو بوجود قائدهم في المغارة، فتم محاصرتها من طرف القوات الفرنسية، وطلبت من شيحاني الاستسلام، لكنه رفض ، وتمكن رفقة من معه من فتح مخرج في اتجاه الجهة الأخرى من الوادي دون أن ينتبه العدو - الذي رمى بقنبلة داخل المغارة - ظنا منه أنه قضى على شيحاني، لكن هذا الأخير تمكن من الخروج متجها إلى دوار السطح دون أن يصيبه ومن معه أي أذى (جرمان، 2009).

5-3-نتائج المعركة:

أ- خسائر العدو :

اختلفت الروايات بشأنها، نظرا للظروف التي يصعب فيها إحصاء كل شيء، فالبعض يروي بأنها كثيرة بنوع من التفاؤل، أما البعض الآخر فيقلل من شأنها، ويرى بأنها ضعيفة (تابليت، 2014)، والرأي الغالب أحصى خسارة الجيش الفرنسي بفقدانه لحوالي 700 جندي، وإسقاط عدد من الطائرات (03 طائرات على أكثر تقدير)- مازالت بقاياها موجودة إلى حد اليوم، بالإضافة إلى تدمير وحرق العديد من الآليات العسكرية المتنوعة من دبابات وسيارات مدفعية وأسلحة وذخيرة، والأهم من ذلك كله هو خسارة المعركة ككل(جرمان، 2009).

ب- خسائر جيش التحرير :

يروي المجاهد المتوفي الوردي قتال بأنهم فقدوا حوالي 70 شهيد، أما الجرحى فقد وصل التعداد إلى أكثر من عشرين جريحا (قتال، 2018)، أما بقية الشهادات فقد حصرت العدد ما بين 100 و 170 شهيدا، وجرح حوالي أربعين مجاهدا، واستشهاد بعض المدنيين وتدمير منازلهم وتهجير الكثير منهم والاستيلاء على مواشيهم ، وعلى النقيض من ذلك تماما يذهب عاجل عجول إلى القول بأنه لم يصب أي أحد في المعركة ما عدا رجلا واحدا قتل عن طريق الخطأ من طرف بعض المجاهدين (تابليت، 2014)، ويبدوا أن هذه الرواية ضعيفة نظرا لتصريحات عجول نفسه والذي حمل مسؤولية القيام بالمعركة للقائد شيحاني بشير من خلال هذا القول "لقد سعي شيحاني إلى إغراق السمكة، فقد كان من الصعب قبول خطئه"(مدلسي، 2011)، وهو دليل واضح

على أنه اغتاظ لسقوط ضحايا كثر في معركة سجلت كأقوى وأعتى معارك جيش التحرير في تاريخ الثورة بصفة عامة، والمنطقة الأولى بصفة خاصة.

خاتمة :

لا يختلف اثنان حول استغلال الرواية الشفوية كمصدر مهم في تدوين معارك الثورة التحريرية ومن بينها معركة الجرف الكبرى نظرا لقيمتها التاريخية المهمة وبالتالي فإنه وجب التنويه إلى ما يلي :

- الحذر الشديد في التعاطي مع بعض الشهادات المفردة وبالتالي وجب مقارنتها مع روايات أخرى للوصول إلى الحقيقة .

- إن اختلاف المؤرخين حول إمكانية اعتبار الرواية الشفوية كمصدر موثوق به، يرجع إلى عدة اعتبارات صحية وعقلية ونفسية وميولات فكرية تخص الراوي.

- تستمد الرواية الشفوية أهميتها بما تحتويه من كم كبير من المعلومات ، وفي بحثنا هذا تم تسليط الضوء على بعض الشهادات الحية عن معركة الجرف الكبرى من أجل استغلال تلك المعلومات وتدوينها للرجوع إليها والاستفادة منها وتوثيقها كمصدر هام في تاريخ معارك ثورة التحرير الجزائرية.

- لا يقل الأرشيف الشفوي أهمية عن بقية المصادر التاريخية الأخرى ودليل ذلك أن معركة الجرف تم تدوين أهم أحداثها و تفاصيلها من خلال الروايات الشفوية المتعددة والتي اتفق مجملها على أنها معركة هامة خُتمت مسيرتها بنصر كبير سجل في تاريخ الثورة الجزائرية وأعطى انطباعا بأن الإرادة والعزيمة رغم الصعاب ستتغلب على كل شيء.

الإحالات والمراجع:

1- أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، المجلد الثاني، دار الجيل، (بيروت: دار الجيل،1991)، ص 453.

2- ابن منظور، لسان العرب، ج14، دار صادر، (بيروت: دار صادر، 2007)، ص348.

3- زكريا إبراهيم الزميلي، دور الرواية الشفوية في حفظ القرآن الكريم وعلومه، كلية أصول الدين الجامعة الإسلامية بغزة ، (فلسطين: كلية أصول الدين بالجامعة الاسلامية بغزة،2006)، ص 93.

4- سيد حامد حريز، مناهج التراث والتاريخ الشفهي عند العرب، كلية الآداب، جامعة الإمارات العربية المتحدة، (أبو ظبي: كلية الأداب جامعة الامارات العربية المتحدة، 1999)، ص.ص04، 05.

5- عدنان أحمد أبو شبيكة، منهج نقد الوثيقة الرسمية المدونة وإمكانية التطبيق على الرواية الشفوية، جامعة الأقصى، بغزة، (فلسطين: جامعة الأقصى بغزة، 2006)، ص 458.

6-المرجع نفسه، ص 488.

7- عدنان أحمد أبو شبيكة، مرجع سابق، ص 495-496.

8- لويس جوتشلك، كيف نفهم التاريخ، تر: عائدة سليمان عارف وأحمد مصطفى أبو حاكمة، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، (بيروت - نيويورك: مؤسسة فانكلين للطباعة والنشر، 1966)، ص.ص 126-127.

9- أسامة محمد أبو نحل، الرواية الشفوية في الرسائل العلمية دراسة تحليلية نقدية، كلية الأداب و العلوم الإنسانية، جامعة الأزهر بغزة، (فلسطين: كلية الأداب والعلوم الانسانية، جامعة الأزهر بغزة، 2006)، ص 318.

10- يوسف تلمساني (2014)، في انتظار استرجاع أرشيف الثورة الجزائرية، حاورته زهية ش من صحيفة المساء، 2014/02/22. تمت زيارة موقع طلبة تلمسان يوم 2017/10/01. على الساعة 20.00 مساءًا.
https://ar-ar.facebook.com/permalink.php?story_fbid=index

11-المرجع نفسه.

12- بن يغزر أحمد، "الشهادة الشفوية كمصدر لتاريخ الحركة الوطنية والثورة الجزائرية بين الإمكان والضوابط"، مجلة الحوار المتوسطي، ع 13-14، ديسمبر 2013، مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، ص 241.

13- رابح لونيسي، "منهج التعامل مع الشهادات والمذكرات عند كتابة تاريخ الثورة الجزائرية (شهادات بن يوسف بن خدة نموذجا)"، مجلة عصور، ع 6-7، جوان –ديسمبر 2005، ص 22.

14- بن يغزر أحمد، مرجع سابق، ص 242.

15- محمد مجاود، "أهمية المنهج الشفوي في الكتابة التاريخية"، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، عدد خاص، ديسمبر 2012، ص10.

16- الحسين العامري، "حدود إسهام الرواية الشفوية والأركولوجيا في كتابة تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء"، دورية كان التاريخية، ع14 ديسمبر 2011، ص13.

17- القرار الوزاري رقم 1322 المؤرخ في 2016/09/25.

18- الحسين العامري، مرجع سابق ، ص13

19- قرباش بلقاسم، حدود الرواية الشفوية في تدوين التاريخ الوطني ومستقبلها، المقاربات الأكاديمية في استغلال الشهادات الحية، متحف المجاهد- (بسكرة: متحف المجاهد، 2014).

20- قرباش بلقاسم، مرجع سابق. وللاستزادة أنظر: معمر شعشوع، المذكرات الشخصية والروايات التاريخية، نقد وتحقيق، الملتقى الوطني السابع حول الرواية الشفوية، 17-18 ماي 2014، جامعة الوادي، الجزائر، ص06.

21- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر،ج4، دار الغرب الإسلامي، (بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1996) ، ص07.

22- عمار جرمان، من حقائق جهادنا، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، (عين مليلة، الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر، 2009) ، ص114.

23- الوردي قتال ، مقابلة خاصة بتاريخ 17-12-2018 بمنزله بمدينة تبسة.

24- شهادات حية عن معركة الجرف، قرص مضغوط ، متحف المجاهد الرائد محمود قنز ، تبسة،الجزائر تحت رقم 54.2007

25- الوردي قتال ، مصدر سابق.

26- فريد نصر الله، التطورات العسكرية للثورة التحريرية بتبسة من خلال الشهادات ووثائق أرشيف ما وراء البحار الفرنسي (1954-1958)، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ المعاصر، جامعة العربي التبسي- تبسة الجزائر 2020/2019 ص 85.

27- محمد العربي مداسي، مغربلوا الرمال، الأوراس النمامشة (1954-1959) منشورات ANEP، (الجزائر: منشوراتANEP ، 2011)، ص 62.

28- عمار جرمان ، مرجع سابق ، ص118.

29- الوردي قتال ، مصدر سابق.

30- محمد الصغير هلايلي، مذكرات الرائد محمد الصغير هلايلي ، شاهد على الثورة في الأوراس، دار القدس العربي، (وهران، الجزائر: دار القدس العربي، 2013)، ص 136

31- محمد العربي مداسي ، مرجع سابق ص 141.

32- عمار جرمان ، مرجع سابق ص 117.

33- محمد العربي مداسي ، مرجع سابق ص 142.

34- تابليت عمر، الأوفياء يذكرونك يا عباس لغرور ، دار الألمعية للنشر والتوزيع ، ط2، (الجزائر: دار الألمعية للنشر والتوزيع ، 2014)، ص124.

35- محمد زروال ، اللمامشة في الثورة، الجزء 1، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، (الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر، 2003)، ص155.

36- عمار جرمان ، مرجع سابق ص 113.

37- عمر تابليت ، مرجع سابق ص131.

38- عمار جرمان ، مرجع سابق ، ص120.

39- الوردي قتال ، مصدر سابق.

40- عمر تابليت ، مرجع سابق ص132.

41- محمد العربي مداسي ، مرجع سابق، ص151.